الجو العام فى تلك الحقبة

أولا – الوضع فى مصر فى ذلك العصر :

ولدت وكان على عرش مصر الخديو عباس حلمى الثانى ، وكان قد مضى على الاحتلال البريطانى لها نحو ثلاثة عشر عاماً ، وكانت مصر بسبب ذلك الاحتلال المشئوم تعانى محنة الفقر والجهل والضعف والحرمان . إذ كان أول ما اتخذته إنجلترا لتحقيق مخططها لاحتلال البلاد أن ضرب أسطولها ميناء الإسكندرية غدراً فى ١١ / ٧ / ١٨٨٢ ثم أنزلت جيوشها إلى أرض الوطن العزيز وتمكنت من دحر الجيش المصرى بالتل الكبير بقيادة أحمد عرابى ، ثم دخلت القاهرة (عاصمة البلاد) فى ١٥ / ٩ / ١٨٨٢ وكان غلادستون رئيس وزرائها قد صرح فى مجلس العموم يوم ٢٤ / ٧ / ١٨٨٢ بأن « ليس لبريطانيا مطامع فى مصر ولم ترسل الجنود إليها إلا لإعادة الأمن فيها ولكى ترجع للخديو (وكان وقتئذ محمد توفيق باشا) سلطته التى فقدها . وأعقب ذلك تصريح فى نوفمبر من نفس العام بأن عدد الجنود البريطانيين قد أنقص إلى ١٢ ألفاً ، لأن احتلال مصر احتلال مؤقت . وستضع الحكومة الإنجليزية شروطه عن قريب بالاتفاق مع الحكومة المصرية .

وكان أول مرسوم صدر بعد دخول الجيش الإنجليزى القاهرة فى ١٥ / ٩ / ٨٢ هو حل الجيش المصرى وتسريح جنوده لتصفية الثورة العرابية ، كما أن السلطات نفت بعد ذلك فى ٢٧ / ١٢ / ٨٢ عرابى وسبعة من زملائه إلى جزيرة سيلان ، أذكر منهم محمود سامى البارودى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، هذا فضلا عما قامت به من إجراء بحرمان البلاد من كل مقومات الحياة . . فأفسدت كل ما غرس الأجداد فينا من خلق كريم وكل ما أقاموا من تكوين وبناء سليم وكل ما شيدوا من مصانع وأسسوا من معاهد ، وعبثت بالتعليم والقوانين والإدارة وقضوا على الجيش والأسطول ، ونهجت سياسة فرق تسد رغماً عما كان قد صدر قبل الاحتلال من تصريحات ووعود عديدة على لسان كبار المسئولين الإنجليز ، كلها كذب وذر للرماد وخداع ، سواء لمصر أو الدول الأوربية وقت أن كانت إنجلترا تدبر لاحتلال مصر وظهرت بوادر ذلك فى الجو السياسى ، ومن تلك التصريحات حسب التسلسل التاريخى :

١ – تصريح السير إدوارد مالت قنصل إنجلترا فى القاهرة للسلطان عبد الحميد سلطان تركيا فى

١٨٨١/٩/٢١ ونصه «أن حكومة جلالة الملك لا ترمى إلا للاحتفاظ بسيادة الباب العالى وتحسين الخديو ، وهى لا ترغب فى احتلال مصر ولا ضمها» .

٢ – تصريح اللورد جرنفيل وزير خارجية إنجلترا إلى موزوروس باشا التركى فى ١٩٨١/١٠/٤ ونصه «بالرغم من جميع الإشاعات والشكوك ليست لنا أية رغبة فى أن نعمل لاحتلال مصر أو ضمها ، وإنما نحن نرغب فى الاحتفاظ بالحالة الراهنة وبحقوق السلطان» .

٣ – وتصريحه لسفير روسيا فى لندن فى ٨١/١٠/١٩ ونصه «ليس لحكومة جلالة الملك مطمع شخصى وإنما غرضها الاحتفاظ بالحالة الحاضرة» .

٤ – وتلغرافه للسير مالت فى ٨١/١١/٤ ونصه «إن غرضنا مقصور على أن تكون مصر متمتعة بالاستقلال الإدارى الذى صنعه السلطان لها ، ولا جرم أن حكومة جلالة الملك تكون قد ناقضت أثمن تقاليد تاريخها الوطنى إذا هى رغبت فى إنقاض هذه الحرية . وأن العلاقة التى تربط مصر بالباب العالى تعد ضمانة كبرى ضد كل تدخل أجنبى . فإذا قطعت هذه العلاقة أصبحت مصر فى مستقبل قريب معرضة لخطر أطماع المتنافسين» .

٥ – تصريح اللورد دوخرين سفير إنجلترا فى الآستانة فى ٤ / ١١ / ٨١ .

٦ – تصريح جلالة الملكة فيكتوريا فى خطبة العرش فى ٨٢/٢/٧ .

٧ – وتصريح اللورد جرانفيل فى ٢٠ / ٣ / ٨٢ .

٨ – وتلغراف اللورد جرانفيل فى ١١ / ٦ / ٨٢ للورد دوفرين .

٩ – ومنشور اللورد جرانفيل فى ١٠ / ٧ / ٨٢ للدول .

١٠ – تصريح شارل دنلك وكيل خارجية إنجلترا فى ١٨ / ٧ / ٨٢ .

وكلها لا تخرج عن سابقتها إمعاناً فى الكذب والخداع اللذين دأبت عليهما السياسة الإنجليزية واستمرت فيهما حتى بعد الاحتلال ، فصدر من ساستها مالا يقل عن الأربعين تصريحاً وعهداً .

● ولما قامت الثورة المهدية بالسودان بزعامة محمد أحمد المهدى تذرعت بها إنجلترا للتدخل فى شئون السودان لتحقيق مخططها الاستعمارى بحجة إحباط الثورة فى مهدها وأعدت حملة مصرية إنجليزية صدرت إليها الأوامر بالزحف على السودان بقيادة كتشنر فى ١٨٩٦/٣/١٣ .

● إلا أن فرنسا كانت تدبر الأمر لاحتلال فاشودة عاصمة إحدى مديريات خط الاستواء لموقعها الاستراتيجى عند ملتقى السوباط بالنيل ولمجاورتها لممتلكاتها فى أفريقيا واعترضت على الحملة المصرية الإنجليزية وقدمت لإنجلترا مذكرة باعتراضها فى ١٨٩٦/٣/١٧ إلا أن إنجلترا رفضتها وكانت قد أحست بنية فرنسا فى احتلال فاشودة وأوجست خيفة إن هى حققتها ، فقد تتابع جيوشها سيرها

للاستيلاء على السودان ومنابع النيل ، وتصل إلى الحبشة ، وقد ترغم بذلك إنجلترا على الجلاء عن مصر والوفاء بوعودها .

● ثم استخدمت إنجلترا دهاءها السياسى وطلبت من مصر – فى صورة نصيحة ، وهى تلقى السم فى الدسم – أن تخلى السودان وهى ترمى إلى تحقيق ماتبيت له وتطمع فيه من انفرادها به .

● ورفضت وزارة محمد شريف باشا الأخذ بتلك النصيحة المسمومة وقدم شريف باشا استقالته ، وكان لورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا قد أصدر أمراً للورد كرومر عميد بريطانيا فى مصر بعزل أى وزير أو مدير لا يسير وفقاً للسياسة التى ترسمها إنجلترا وهذا ما رفضه شريف باشا بإباء ، واستقال . وتولى نوبار باشا من بعده رئاسة النظار ووافق بضغط من الإنجليز على إخلاء السودان فى ١٨٨٤/١/٨

● وسارت الحملة فى طريقها حتى وصلت إلى دنقلة فى ٩٦/١/١٢ ومنها إلى أبو حمد فى ٩٧/٨/٧ وبربر فى ٩٧/٩/١٢ ثم إلى العطبرة فى أبريل سنة ٩٨ ، وفيها أسر الأمير محمود . ثم دخل الجيش أم درمان فى سبتمبر وتم بذلك الانتصار على الدراويش بعد أن أبلى الجيش المصرى بلاء حسناً وأثبت مقدرته الحربية وصبره على المتاعب واحتمال المكاره وتحمل العبء الأكبر فى القتال ، واستشهد من رجاله ثلاثون ألف مقاتل .

● وتابعت إنجلترا تنفيذ مخططها الاستعمارى لإضعاف مصر وتثبيت أقدام الاحتلال فيها وتقطيع أوصالها . وعقدت الاتفاقات مع الدول الأوربية « فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا » على توزيع ممتلكات مصر بحوض النيل الأعلى وفى البحر الأحمر (أريتريا والصومال وزيلع وهرر ومصوع وبربره) برغم ما فى ذلك من اعتداء على ممتلكات الغير وتناقض لما تعهدت به فى معاهدات لندن فى ١٨٤٠/١٠/١٥ وباريس فى ١٨٥٦/٣/٢٠ وبرلين فى ١٨٧٨/٧/١٣ ومؤتمر الآستانة سنة ١٨٨٢ .

ثانياً : الوضع فى الخلافة الإسلامية :

وكانت دولة الخلافة « تركيا » توصف وقتئذ « بالرجل المريض » إذ تضافرت عليها دول الغرب لإضعاف هيبتها وكسر شوكتها وتقطيع أوصالها للذهاب بإمبراطوريتها الواسعة ، فجيشت ضدها – قبل منابذتها العداء العسكرى – عوامل الانحلال ففسدت الأخلاق وانتشرت الفوضى ودب فيها الفساد واعتصرها ظلم وغفلة السلاطين وفساد الحكام بالرشوة والمحسوبية فأصبحت جثة هامدة ولقمة سائغة لكل طامع وانسلخت عنها معظم ممتلكاتها فضاقت رقعتها وأمنت دول الغرب جانبها . وكان لذلك كله أسوأ الأثر على مصر وهى التابعة لدولة الخلافة ولو اسميًّا .

ثالثاً : الوضع فى العالم الإسلامى :

وكانت الدول الإسلامية فى غفلة وفى سبات عميق ، أذلها الخوف وأضناها الفقر واستبد بها الجهل . ومزقتها الفرقة فتخلفت عن ركب الحياة وأصبحت وراء الوراء تهباً للاستعمار بسبب الغفلة عن الأخذ بأسلوب القوة والانحراف عن تعاليم الدين فضلاً عن فقدان القدوة الحسنة الصالحة بضعف الدولة الأم (تركيا) دولة الخلافة التى كان لا يربطها بها سوى خيط ضعيف من التبعية الصورية .

وذلك تصوير موجز للجو الذى ولدت فيه . جو مظلم خانق سواء بالنسبة لمصر وطنى أو لدولة الخلافة الإسلامية التى تتبعها بلدى اسمًا . أو للدول الإسلامية المغلوبة على أمرها .

* * *

الكتاب ونشأة البيت الدينية :

ألحقنى والدى فى سن مبكرة مع شقيقتى أمينة التى تكبرنى سناً بكتّاب رضوان بك أبو الشوارب بحارة الهدارة التى ولدت فيها . وكانت العائلة تقطن وقتئذ بحارة الصوافة بقرب قسم عابدين . . لأتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، ولأحفظ ما تيسر من القرآن الكريم . فكنت – لما حبانى الله به من ذكاء وطاعة – موضع رعاية واهتمام ناظر الكتاب الشيخ على عمار .

وتعهدنى والدى رحمه الله فى نفس الوقت بتحفيظى القرآن الكريم فى المنزل وتهذيبى بآداب وخلق القرآن . واهتم بتقويتى وتقويم لسانى فى اللغة العربية وعلمنى صغيراً كيفية الوضوء والصلاة وأمرنى بها وراقبنى فى المواظبة عليها وأعطانى من نفسه ومن والدتى المثل الأعلى العملى والقدوة الحسنة . فنشأت والحمد لله نشاة دينية صحيحة وفى جو إسلامى سليم وذلك ولا شك أس النجاح .

مرحلة الابتدائى :

وفى سنة ١٩٠٥ أراد والدى أن يلحقنى بمدرسة حكومية وكنت بلغت التاسعة تقريباً وتقدم بالطلب إلى مدرسة عابدين الابتدائية ، إلا أنها رفضته لعدم بلوغى السن المقررة وقتئذ للقبول . فألحقنى بمدرسة فيكتوريا الأهلية بشارع حسن الأكبر خلف سراى عابدين . ومضيت بها سنة دراسية لأبلغ سن القبول بمدرسة عابدين الأميرية والتحقت بها وقبلت .

وكنت بفضل التربية والرعاية المنزلية – قبل كل شىء – التلميذ المستقيم المجتهد المطيع المتفوق فى كل سنى الدراسة . المتمتع بإعجاب ومحبة وتقدير أساتذتى وأقرانى بجانب رضا الوالدين .

ومما أذكره بهذه المناسبة وأعتز به فرحتى التى لا تقدر يوم أن اختارنى الشيخ محمد المنيرى أستاذ اللغة العربية أنا وزميلى حسين ثابت ، وكنا وقتئذ بالسنة الأولى ، وكنا أقوياء فى اللغة العربية لنمثل فى الفصل وبحضور محمد بك رشدى ناظر المدرسة قصة السمؤل وما داربينه وبين أحد الشعراء ، من حوار ، وأخذ حسين دور الشاعر ومثلت دور الأمير . إذ يقول الشاعر مستفزًا الأمير : «أتذكر إذ لحافك جلد شاة . . . وإذ نعلاك من جلد البعير .» فيرد الأمير فى تواضع واطمئنان «نعم أذكره ولا أنساه»

ويعود الشاعر مستفزًا الأمير ويقول :

«أمير يأكل الفالوذ سرًا . . . ويطعم ضيفه خبز الشعير .

إلى نهاية القصة . . ولم يخرج الأمير عن حلمه بل أجزل للشاعر العطاء . وقمت وقام زميلى ، كل منا بدوره بنجاح وحزنا إعجاب أستاذنا المنيرى وناظر المدرسة محمد بك رشدى والزملاء جميعاً وتسلم كل منا مكافأه تشجيعية «كارت بوستال» قدمها لنا الناظر بيده فى مكتبه .

* * *

مأساة دانشواى (١٩٠٦) :

فى ١٩٠٦/٦/١٣ وقع الحادث المشئوم وكان مصطفى كامل فى أوربا فى خدمة بلاده يشرح قضيتها ويدافع عن حقها بقلمه وخطاباته واتصالاته . وتجلت الجريمة النكراء فى أبشع صورها يوم أن قصد إلى دانشواى خمسة من ضباط الإنجليز لصيد الحمام خارج القرية ، وشب من رصاص بنادقهم حريق فى أجران القمح وتجمع الأهالى لإطفائه وللدفاع عن أنفسهم من أذى الضباط ، وهرب الضباط وأصيب أحدهم بضربة شمس وهو يجرى سببت وفاته ، كما أثبت ذلك التقارير الطبية ، إلا أن السلطة قبضت على كثير من الأهالى بتهمة اعتدائهم على الضباط وقتل أحدهم ، واستبد بالإنجليز الحقد والانتقام الأعمى فأمروا بأن تنصب المشانق وآلات الجلد والتعذيب بالبلدة وقبل صدور حكم المحكمة المخصوصة التى شكلت برئاسة بطرس غالى باشا لمحاكمة المتهمين محاكمة صورية ، وقضت ظلماً بالإعدام شنقاً على أربعة وبالجلد وبالسجن لمدد مختلفة على سبعة عشر . ونفذ حكم الإعدام – برغم شهادة الطبيب الشرعى البريطانى بأن بول الذى وقع ميتاً وهو يجرى مات بضربة شمس – فى كل من حسن محفوظ (٧٥ سنة) ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم . ومحمد درويش زهران ، والأشغال الشاقة المؤبدة على محمد عبد النبى مأذون القرية وأحمد عبد العال محفوظ ، والأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على أحمد محمد السيسى ، ولسبع سنوات على كل من محمد على أبو سمك وعبده البقلى وعلى على شعلان ومحمد مصطفى محفوظ ورسلان السيد على والعيسوى محمد محفوظ ، ولسنة مع ٥٠ جلدة على

كل من حسن إسماعيل السيسى وإبراهيم حسنين السيسى ومحمد الغباشى السيد على ، وجلد ٥٠ جلدة كل من السيد العونى وعزب عمر محفوظ والسيد سليمان خير الله وعبد الهادى حسن شاهين ومحمد أحمد السيسى . هذا عدا الفلاح سيد أحمد سعيد الذى وجدوه يسعف الضابط بول وهو ملقى على الأرض عند بلدة سرسنا بشربة ماء فجازوه جزاء سنمار وأخذوا يثخنونه طعناً ووخزاً ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم جثة هامدة .

محامى دانشواى :

وقام مصطفى كامل بحملة شعواء أعطاها كل جهده ضد الظلم والاستبداد والوحشية والانتقام العلنى والتعسفى المكشوف وأثار العالم على تصرفات الإنجليز البربرية ، ونجح فى حملته أيما نجاح وكان بحق محامى دانشواى الجرىء الأمين وفازت مصر نتيجة جهاده الصادق بتخفيف الحكم على بعض المتهمين وبخروج كرومر العميد البريطانى العتيد من مصر مطروداً شر طردة وكان فيها الحاكم الآمر الناهى بلا معارض وبإسقاط حكومة مصطفى فهمى صنيعة الإنجليز الذى استمر رئيساً للوزارة ثلاثة عشر عاماً (١٨٩٥/١١/١٢) - ١٩٠٨/١١/١١) وتم الإفراج عن المسجونين فى ١٩٠٨/١/٧ قبل وفاة مصطفى كامل بشهر (١٩٠٨/٢/١٠) ولم يتجاوز من العمر ٣٤ عاماً حيث ولد فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وألحقنا به على الإيمان .

نشأة البيت السياسية :

وما إن وصلت إلى السنة الثالثة الدراسية حتى أخذ والدى يدربنى على قراءة جريدة اللواء (لسان حال الحزب الوطنى) كل مساء بعد استذكار دروسى . يريد بذلك تقويم لسانى وتقويتى فى اللغة العربية بجانب بث روح الوطنية فى نفسى عن طريق مواصلة قراءة مقالات اللواء التى كانت تكشف عن مساوئ الاحتلال وتقف للحاكمين بالمرصاد . وتفيض وطنية وحسن توجيه .

وكان والدى يتوج ذلك الإيحاء بما كان يحدثنى به من وقت لآخر فى سير الأبطال والمجاهدين وكان يكثر من الحديث عن مصطفى كامل الشاب ، فغرس فى نفسى الإيمان بحب الوطن بعد أن حبب إلى الإيمان بالله ، فنشأت بفضل الله وبفضل التربية المنزلية مؤمناً وطنيًا .

اعتناق مبدأ الحزب الوطنى :

ومن هنا بدأ اهتمامى تلقائياً بما يدور فى بلادى على يد المحتل الغاصب وأعوانه وبما يقوم به الوطنيون

من جهود لتخليص الوطن من ذلك البلاء ، واعتنقت مبدأ الحزب الوطنى عن إيمان : مبدأ الجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل – مصر والسودان والملحقات – زبلغ وهرر ومصوع وأرتيريا . التى روى أرضها الدم المصرى الزكى ورفع على ربوعها العلم المصرى . مبدأ لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . ومن فرط حبى للزعيم الشاب مصطفى كامل حفظت عن ظهر قلب عباراته الوطنية الخالدة التى بقيت على الدهر نبراساً لكل وطنى وكنت أفخر بترديدها والتمسك بها والعمل بمقتضاها .

ومنها «لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا» : «مصر للمصريين» «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» : «إن من يفرط فى حقوق بلاده ولومرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان» «إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه حقيقة واقعة» .

«ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة مهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب فإنا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً لقد طال الانتظار» .

بعض شعارات الحزب :

وتجمعت أمام عينى ووقرت فى قلبى شعارات «الحق لا يتجزأ» والحق يؤخذ قسراً ولا يمنح عفواً . والحرية شجرة تروى بدماء الشهداء . وتأصلت فى نفسى بذور وتعاليم الوطنية السليمة وزادتها الحوادث والأحداث رسوخاً فلم أتحول عنها لحظة طول حياتى حتى فى أحرج المواقف وأحلك الأيام التى مرت بى وبالبلاد .

صفحة جهاد مصطفى كامل :

وكان صوت الزعيم الشاب مصطفى كامل يجلجل فى قوة وإيمان وبإخلاص فى المؤتمرات والندوات فى الداخل والخارج لشرح القضية المصرية والمطالبة بحق بلاده فى الحرية والاستقلال . كما كانت مقالاته الوطنية سيفاً بتاراً يشهره بلا هوادة وباستمرار فى وجوه الأعداء فنجح بقوة إيمانه وصدق وطنيته فى إيقاظ الشعور وإحياء الهمم وبث الروح الوطنية وجمع الناس من حوله وألف بين قلوبهم وفتح الطريق أمام العاملين .

واتخذ من صحيفة اللواء التى أصدرها فى أوائل سنة ١٩٠٠ (أى قبل تأسيس الحزب بحوالى ثمانى سنوات) منبراً لدعوته وكانت واسعة الانتشار حتى لقد بزت فى ذلك صحيفة المؤيد لسان حال حزب الأمة الذى تأسس فى ١٩٠٧/٩/٢٠ برئاسة محمود باشا سليمان ووكالة حسن باشا عبد الرازق وعلى

باشا شعراوى وسكرتارية أحمد لطفى السيد وضم بضع مئات ممن أطلق عليهم «وجهاء المصريين» وسلك الحزب سياسة الاعتدال بخلاف الحزب الوطنى الذى سلك سياسة التطرف فى مناهضة الاحتلال .

وأخذ مصطفى يمهد لتأسيس الحزب الوطنى بحملة سياسية قوية واسعة النطاق أحكم تخطيطها وتنفيذها إلى أن أعلن عن تأسيسه فى خطبته الجامعة المشهورة التى ألقاها وسط ألاف الوطنيين فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية فى ١٩٠٧/١٠/٢٢ وفى ١٩٠٨/١/٢ صدر قرار اللجنة الإدارية للحزب باتخاذ جريدة اللواء لسان حال الحزب . بالإضافة إلى «اللواء بالفرنسية» لتندار جيبسيان ، واللواء بالإنجليزية» ذى اجيبسيان استاندارد . اللتين أصدرهما مصطفى عام ١٩٠٧ واللتين توقفتا عن الصدور سنة ١٩٠٩ بسبب الخسائر التى تكبدها الحزب فى إصدارهما .

هذا وكان للحزب صحف مؤيدة لمبادئه أذكر منها «الدستور» صحيفة يومية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى الكاتب الإسلامى الشهير أصدرها فى ١٩٠٧/١١/١٦ وتوقفت عن الصدور فى ١٩٠٩/١٢/٩ لأسباب مالية .

«القطر المصرى» صحيفة يومية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حلمى الوطنى المعروف وأول صحفى مصرى سجن بتهمة العيب فى العائلة المالكة ، صدرت فى أبريل ١٩٠٨ إلى أن صدر قرار يمنعها عن الصدور فى يناير ١٩١٢ .

«وادى النيل» صحيفة الحزب فى الإسكندرية لصاحبها محمد الكلزه وكانت أكثر صحف الحزب اعتدالا ، صدرت فى ١٩٠٨/٥/٢ واستمرت فى خدمة رسالة الحزب إلى أن صدر قرار بأغلاقها فى ١٩١٢/٤/٧ .

«ضياء الشرق» صحيفة يومية أصدرها فى ١٩٠٨/٥/٢ محمود حسيب إلا أنها توقفت عن الصدور بعد حوالى الشهر لانصراف الجمهور عنها لصغر حجمها وقلة موادها .

«مصر الفتاة» صحيفة يومية أصدرها فى ديسمبر ١٩٠٨ نفر من محررى اللواء برئاسة سيد على كان اللواء قد فصلهم لاعتصام قاموا به وظلت الصحيفة تروج لمبدأ الحزب إلى أن أغلقت بقرار من الحكومة فى ١٩١١/١٠/٥ ضمن حملة السلطات للتخلص من صحف الحزب .

«البلاغ المصرى» صحيفة يومية أصدرها إسماعيل شيمى أحد أقطاب الحزب فى ١٩١٠/٧/٦ وكانت تصدر فى قسمين أحدهما باللغة الفرنسية وكانت مقالاتها غاية فى التطرف سواء ضد الاحتلال أو ضد الخديو إلى أن صدر قرار ناظر الداخلية بإغلاقها فى أوائل سنة ١٩١١ ضمن حملة التخلص من الصحف الوطنية .

« الكفاح » لصاحبها ورئيس تحريرها الوطنى الغيور المكافح الأستاذ حسن شافى الجيزاوى استمر فى نشر دعوة الحزب بإخلاص وأمانة ومهاجمة الاستعمار وأعوانه بضراوة إلى أن توقفت عن الصدور لقلة مواردها المالية .

وبفضل الدعاية القوية الواسعة المنظمة والجهد الصادق الخالص ملك الحزب الزمام وتمتع فى تلك الحقبة بتأييد ساحق من جانب الجماهير مكنته من قيادة النضال الوطنى فى الطريق المستقيم بقوة وصلابة وحزم . ومن ذلك على سبيل المثال ماكان من أمر رجال الحزب يوم أن عطلت وزارة الداخلية صحيفة اللواء سنة ١٩١٠ لتطرفها فى مهاجمة المحتل وحدتها فى نقد السلطات أذ أسرعوا فى اتخاذ الإجراءات لإصدار صحيفة تحل محلها فصدرت صحيفة العلم ونسجت على نهج اللواء واستفتحت بمقال ملتهب « هوى اللواء فصافح بعده العلما » وسارت رافعة علم الجهاد إلى أن صدر قرار الداخلية بتعطيلها هى الأخرى عن الصدور ولم يثن ذلك التعسف عزمهم أو يضعف من عزيمتهم بل زادهم إيماناً وتمسكاً بالحق والتفانى فى الذود عنه شأن المجاهدين الصادقين وأصدروا جريدة الشعب .

ونشير فى هذا المجال إلى بعض من مأثور أقوال الزعيم الشاب :

– « إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها وأغلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقف فى طريقنا ولا الشتائم تؤثر فينا . . ولا الخيانات تزعجنا ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية . »

– « نعم إننا لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدًا بعد واحد لكانت أخر كلماتنا لمن بعدنا كونوا أسعد حظًا منا . وليبارك الله فيكم ويجعل النصر على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس » .

– « لو انتقل قؤادى من الشمال إلى اليمين – أو تحولت الأهرام من مكانها المكين ما تغير لى مبدأ . ولا تبدل لى اعتقاد . بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى » .

وأعطى الزعيم الوطنى التعليم الكثير من اهتمامه فأنشأ مدارس الشعب والأقسام الليلية لمحو الأمية وجند لها المدرسين المتطوعين من شباب الحزب الوطنى المثقفين ونادى بإنشاء الجامعة المصرية وأولى العمال والفلاحين بالغ اهتمامه فكون النقابات المختلفة وأسس الجمعيات التعاونية الزراعية لينظم صفوف الطبقة الكادحة . عمالاً وفلاحين – ويحفظ حقوقهم ويخلصهم من فئة المرابين ويحررهم من استبداد السلطة الحاكمة . وكان يقود النقابات وقتئذ ويسيطر عليهم عناصر أجنبية لم يشترك فيها من العمال

المصريين إلا قلة محدودة مهيضة الجناح لا حول لها ولا قوة – كما كون نقابة عمال الصنايع اليدوية بالقاهرة وأنشأ لها فروعاً بالإسكندرية وطنطا والمنصورة لينهض بأرباب الحرف اليدوية .

المصاب الجلل موت الزعيم الشاب ١٩٠٨/٢/١٠

فى ١٩٠٨/٢/١٠ صعدت روح الزعيم الشاب إلى بارئها راضية مرضية بعد مرض عضال أصاب جسمه النحيل الضعيف نتيجة الإجهاد الفكرى والجسمانى المتواصل فى خدمة البلاد ، ولم يشأ أن يرحم نفسه فواصل العمل وهو يغالب المرض حتى غلبه المرض وألزمه الفراش إلى أن مات ، ولم يكن قد تجاوزت سنه الرابعة والثلاثين من عمره ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وألحقنا به على الإيمان .

سرى نبأ ذلك المصاب الجلل فى طول البلاد وعرضها سريان النار فى الهشيم ، واشتركت الأمة كلها رجالا ونساء ، شيباً وشباناً على اختلاف الطبقات والنحل فى تشييع جثمانه الطاهر من دار اللواء بشارع الدواوين أمام وزارة الداخلية إلى مقبرة الإمام الشافعى ، كما اشترك مئات الأجانب من رجال السفارات الأجنبية ورجال المال والأعمال والمراسلين الأجانب وغيرهم . وكانت مصر كلها بمن فيها من مصريين واجانب تشيع الجثمان الطاهر فى موكب عظيم يجل عن الوصف ، والكل يمشى فى حزن عميق وسكون رهيب وخشوع وإجلال وكأن على رؤوسهم الطير وكان ذلك يوماً مشهوداً . مات مصطفى وخلفه فى زعامة الحزب محمد فريد . ورثاه فى قصائد عصماء فطاحل الشعراء : خليل مطران وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وغيرهم .

لمحة عن محمد فريد «خليفة مصطفى كامل» :

لم يسعدنى الحظ برؤية المرحوم الزعيم الشاب مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى وإن كنت سعدت برؤيه خليفته المرحوم محمد فريد مرة واحدة فى حياتى عن طريق المصادفة بميدان لاظوغلى بالمالية وعربته تخترق الميدان ويجواره المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش المجاهد الوطنى الكبير . وكدت أطير فرحاً وودت لو أتيحت لى الفرصة للقائه مرات لأتزود من وطنيته عن كثب .

ولد محمد فريد فى القاهرة فى يناير ١٨٦٨ وكان والده أحمد فريد باشا من كبار موظفى الدولة وأغنى اغنيائها ، ونشأ فريد فى بيت عز وثراء ينعم منذ نعومة أظفاره بما ينعم به عادة أبناء الأثرياء وأولاد الذوات كما كانوا يسمونهم ، فى عيشة هنية ، يلبسون أفخر الثياب ويأكلون أشهى الطعام وينامون على الفراش الوثير ويقوم على خدمتهم ورهن إشارتهم الكثير من الخدم والحشم .

وجرت العادة أن من يحيا فى صغره حياة الترف والدعة يشب وهو أبعد ما يكون عن حياة الكفاح

والجهاد وشظف العيش ومصابرة تقلباتها وما يكتنفها من متاعب ومشاق ، مما قد لا يتحملها إلا من كابدها منذ الصغر .

لكن فريد الثورى ابن الثراء ماكاد يشب عن الطوق حتى ضرب حياة الطفولة السعيدة عرض الحائط وخرج برضاه على العرف واختار لنفسه حرية العمل وسلك طريق النضال الوعر وتحمل المشاق وصبر على المكاره فى سبيل خدمة بلاده ومواطنيه ، فكان بذلك مثلاً لقوة الإيمان وسلامة التفكير وسمو النفس ونبل الأخلاق ، ورمزا للتضحية والبذل وعلو الهمة والفداء .

درس الحقوق وتوظف بالحكومة وتدرج فى وظائفها حتى وصل إلى وظيفة وكيل النائب العام . وبدت عليه ملامح الذكاء ووضع وهو لا يتجاوز بعد سن الثالثة والعشرين كتاب «تاريخ مصر فى عهد محمد على» وقام بطبعه سنة ١٨٩١ ثم «كتاب تاريخ الدولة العثمانية» وطبعه سنة ١٨٩٤ ثم كتاب «تاريخ الرومان» وطبعه سنة ١٩٠٢ .

وفى ١٨٩٦ جرت حادثة غيرت مجرى حياته . ذلك أنه حضر كمشاهد جلسة محاكمة الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد وتوفيق كيرلس الموظف بمكتب تلغراف الأزبكية التى عقدت بمحكمة عابدين الجزئية فى نوفمبر ١٨٩٦ بتهمة إفشاء أسرار حربية عن وضع الجيش المصرى بالسودان .

وشهد محمد فريد المحاكمة وصدر حكم القاضى ببراءتهما ، ولم يقو فريد على كتمان ارتياحه للحكم وإظهار عطفه على المتهمين ، وبلغ ذلك رؤساءه فاغتاظوا لموقفه الجرىء ، وأصدروا أمرهم بنقله إلى الصعيد ، فاكان من فريد المعتز بكرامته إلا أن رفض الإذعان لأمر النقل واستقال غير آسف على الوظيفة الحكومية وغير عابئ بالتقاليد المرعية فى العائلات الكبيرة التى كانت تأنف من أن يسعى الفرد فيها لكسب رزقه بالاشتغال بالأعمال الحرة وترى أن رزق أفرادها مكفول بإيراد أطيانها وممتلكاتها واشتغل فريد بالمحاماة وكانت هذه أول خطوة يخطوها على طريق النضال .

وأصدر مع زميله الأستاذ محمود أبو النصر المحامى «مجلة رد المسوعات» فضح فيها الاستعمار الإنجليزى والفرنسى وجرائمه فى أفريقيا وآسيا وتناول موضوع الإنجليز وحرب الترانسفال واستغلال الشركة الإنجليزية الأفريقية ، وتعرض للاستعمار الروسى فى آسيا وغير ذلك من موضوعات وقتئذ .

وآلت إلى محمد فريد زعامة الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل فكان خير خلف لخير سلف . طالب بالدستور وأعلن أنه لا يطلبه من بريطانيا ولا يوافق على ما يدعيه الإنجليز من أن الخديو لا يستطيع أن يعلن الدستور إلا بعد إذن من بريطانيا ، وهيأ الرأى العام للتمسك بالمطالبة بالدستور وكانت بوادر الشر قد بدت فى ارتماء الخديو عباس فى أحضان السير «الدون فروست» الذى خلف كرومر واتبع ماسموه بسياسة الوفاق ، وكان من أبرز أهدافها مطاردة فريد واضطهاده ومحاربة سياسته

ومصادرة جرائد الحزب وتضييق الخناق على أتباعه وأنصاره .

وأولى فريد التعليم كثيراً من اهتمامه ودعا إلى جعل التعليم الابتدائى إلزاميًّا بالمجان للجميع لا فرق بين غنى وفقير ، وإلى التوسع فى التعليم الثانوى وإلى الإكثار من المدارس الليلية فى المدن والقرى لمحو الأمية . وكان يدرس بنفسه تطوعًا فى مدارس الشعب الليلية التى أنشأها الحزب ، وكان هو وزملاؤه عبد العزيز جاويش وأحمد لطفى وعمر لطفى وأعضاء الحزب من طلبة المدارس العليا .

وكما اهتم بالتعليم اهتم بالناحية الاجتماعية فدعا إلى تشكيل نقابات زراعية ، وأنشئت لأول مرة للدفاع عن حقوق الفلاح التعس فريسة الملاك والمرابين وضحية ظلم وتعسف الحكام والقوانين . كما دعا إلى تكوين نقابات العمال وكونت لأول مرة سنة ١٩٠٩ نقابة عمالية بحى بولاق للدفاع عن حقوق العمال ورفع مستواهم .

وبذل فريد جهداً مشكوراً وجهوداً مضنية لتوثيق الصلات والروابط بين مصر والأقطار العربية متحملاً مشاق السفر ومعاناة الليالى والأيام فى سبيل شرح قضية بلاده ومن أجل دفع تلك الأقطار – وكلها مستعمرة – إلى الجهاد لطرد المستعمر وللتمتع بالحرية والاستقلال .

وزار كلا من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب فضلاً عن زيارته للأندلس كسباً للأعوان فى صف قضية بلاده ضد المحتلين .

ومما يضفى على جهود فريد فى هذه الناحية الجلال والتقدير أن كبراءنا لم يكن لهم هم إذا ما نزحوا إلى الخارج إلا ارتياد مجال اللهو والعبث والفجور فكانت تعج بهم من وقت لآخر مونت كارلو وفيشى وباريس ودرفيل وفرنسا جرياً وراء المتعة الجنسية واحتساء الخمور ولعب القمار والسهر فى الليالى الحمراء مضيعين أموالهم وصحتهم وكرامتهم ثم يعودون إلى وطنهم المنكوب بهم يجرون أذيال الخيبة والحسرة .

هذا وقد رأى طرفا التحالف «غورمست والخديو» أن الفرصة واتتهما عندما أصدر الشيخ على الغاياتى عضو الحزب الوطنى ديوانه «وطنيتى» وقدم فريد للديوان بعبارة وطنية رزينة ، فأشاد بما للشعر من تأثير قوى فى بث روح الوطنية فى أبناء الشعب وفى الحض على الإقدام وبذل المال والنفس . ووجه النصح إلى شعرائنا وقال «على الشعراء أن يقللوا من وضع قصائد المديح فى أيام ومواسم معلومة وأن يستعملوا مواهبهم فى خدمة الأمة بدلاً من أن يصرفوها فى خدمة الأغنياء . وتملق الأمراء والتقرب إلى الوزراء لأنهم كلهم زائلون والأمة باقية . وأبدى إعجابه بما وضعه شعراء الأرياف من أناشيد وأغان ومواويل ، سواء باللغة الفصحى أو بالعامية فى حادث دانشواى ، وفى جهود مصطفى كامل محامى دنشواى وفى موضوع رفض الجمعية العمومية مد أجل امتياز قناة السويس وفى غيرها من المواقف الوطنية ، كما أبدى غبطته لانتشار تلك الأغانى والمواويل والتغنى بها فى سمر الريفيين وأفراحهم ، وعقب

فريد على ذلك بأنه يستبشر بتلك الروح خيراً وبأنها من دلائل اقتراب زمن الخلاص من الاحتلال ومن سلطة الفرد .

ومن أجل تلك المقدمة الوطنية الخالصة حكم على فريد فى ١٩١١/١/٢٣ بالحبس ستة شهور فتقبل الحكم بنفس راضية ودخل السجن ، وساومه الخديو وهو فى السجن ليفرج عنه فأبى المساومة ولم تزده إلا صلابة ، وخرج من سجنه بعد قضاء المدة أشد قوة وأصلب عوداً وأقوى عزيمة . . وهو فى ذلك يقول : «مضى على فى غياهب السجن ستة شهور ولم أشعر أبداً بالضيق إلا عند اقتراب أجل الخروج لعلمى أننى خارج إلى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه سلاح الاحتلال وظل على صلابته يقود النضال ضد الخديو عباس وضد الاحتلال الإنجليزى بثبات وإصرار» ولم يثنه ما تعرض له من اضطهاد أو ما تعرضت له جرائد الحزب الواحدة بعد الأخرى من تعطيل ، وكان يجهر بالقول : «إننا قوم تذرعنا بالصبر على الحوادث واتخذنا الثبات شعارنا ، إننا نعرف كيف نصبر على المكارة . . ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا» . وحوكم من أجل خطابه الوطنى فى الجمعية العمومية للحزب فى ١٩١٢/٣/٢٢ وحكم عليه فى ١٩١٢/٥/١ الحبس مع الشغل سنة إلا أنه كان قد هاجر إلى تركيا قبل ذلك ليواصل جهاده فى الخارج بعيداً عن مضايقات الإنجليز والخديو وحضر عدة مؤتمرات فى أوربا كشف فيها عن مساوئ الاحتلال وشرح بإفاضة قضية بلاده شرح الوطنى الدارس الملم ، وبين بالدليل القاطع حق بلاده فى الاستقلال التام الناجز .

ثم حضر مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠ الذى كان مزمعا عقده فى فرنسا وتواطأت إنجلترا مع فرنسا على عدم عقده بها ، فسعى فريد جاهداً لدى بلجيكا ونجح فى عقده ببروكسل وكان من أبرز ما حضره من المؤتمرات وأكثرها نجاحاً ذلك المؤتمر الذى عقد فى ميعاده لعرض القضية المصرية ، وبذل فيه جهداً محموداً والذى ناب فيه عن مستر كليف الإنجليزى فى رئاسته لمرضه الشديد وألقى عنه خطابه الشهير الذى هاجم فيه بشدة الاحتلال البريطانى لمصر . وحضر مؤتمر السلام فى لاهاى ١٩١٣ ومؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٤ .

ولما عزمت تركيا على تجريد حملة عسكرية على مصر من جهة القنال ١٩١٥ أثناء الحرب العالمية الأولى طالب زعماءها بالإعلان رسميًّا عن أن الغاية من الحملة هى استقلال مصر ، فلم يأخذوا برأيه وضاقوا به ذرعا فترك تركيا إلى سويسرا ومنها إلى ألمانيا حيث استقر به المقام وواصل نضاله لبلده بكل ما يملك فحضر مؤتمر الأجناس المضطهدة للمرة الثانية ١٩١٦ ثم المؤتمر الدولى الاشتراكى فى ١ يونية ١٩١٧ ولما دعى لحضور المؤتمر الدولى الاشتراكى المنعقد فى بون فى يونية ١٩١٧ كان المرض قد أقعده

وألزمه الفراش فكتب إلى هيئة المؤتمر معتذراً عن عدم الحضور ، وقدم تقريراً كان أعده عن القضية المصرية التى لم يكن يشغله شيء سواها – وكذلك فعل عند ما دعى إلى المؤتمر الدولى الاشتراكى المنعقد فى أغسطس ١٩١٩ فى لوسيرون .

وفشلت كل المحاولات فى إقناع محمد فريد بأن يفكر فى العودة إلى بلاده خصوصاً بعد أن تدهورت صحته وأصبح صفر اليدين فأبى بإصرار وكان من قبل قد عاهد نفسه الا يعود إليها وقدم المحتل تدنس أرضها .

وهكذا عاش محمد فريد فى بلاد الغربة أمة فى فرد بعيداً عن الأهل والوطن متنقلاً بين تركيا وسويسرا وألمانيا ، مكرساً وقته وجهده للقضية المصرية ولخدمة مصر– مصر التى أغرم بحبها ولم يفتأ يصدر النشرات ويدعو للندوات ويحضر المؤتمرات على حسابه الخاص من ١٩١٢ إلى ١٩١٩ إلى أن هزل جسمه وساءت حالته المالية والصحية .

وفى سبيل مصر تقبل فريد بنفس مؤمنة كل ما صادفه فى طريقه من ظروف قاسية عصيبة – رضى أن يلبس الثياب المهلهلة وكان يلبس الحرير ، وأن يبيت على الطوى وكان ينعم بشهى الطعام وأوفره ، وأن يقطن فى حجرة متواضعة فوق سطح أحد المنازل هرباً من الأجر المرتفع الذى لا قبل له به وكان يقطن أفخم القصور وفى خدمته الخدم الكثير .

أتى على فريد وقت كان لا يجد فيه ثمن الدواء لعلاج علته إلا بشق الأنفس وإن وجده تنازل عنه بطيب خاطر وخصصه للصرف على طبع ما يصدره من نشرات خدمة لمصر .

ومن نكد الدنيا أن ينضب معين الإنسانية والوفاء فلا يجد فريد من حوله من يواسيه فى شقائه ومرضه اللهم إلا تلميذه الوفى الدكتور خليل مدكور الذى لازمه طوال سنوات حياته الأخيرة المليئة بالهموم والآلام ، جزاه الله خير الجزاء .

ولما قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر أرسل فريد إلى سعد زغلول زعيم الأمة وزعيم الوفد برقية يرجو له فيها كمال التوفيق والنجاح . ومن عجيب أن تأخذ سعد العزة بالإثم فلا يرد على برقية فريد .

وشتان بين الموقفين . . موقف الوطنية البريئة لفريد رمز التضحية وهو يرسل برقية يهنئ فيها سعد بالثورة المصرية ويرجو له التوفيق برغم ما بينه وبين سعد من خصومة سياسية . وموقف السياسة اللاإنسانية لسعد وهو لا يرد على برقية فريد برغم أنه بعثها وهو على فراش الموت يقاسى من شدة المرض . وهكذا يكون الفرق بين زعيم وطنى تسمو به وطنيته وآخر سياسى تهوى به سياسته ، ولله فى خلقه شئون .

وفى ١٩١٩/٩/١٤ وجه فريد للأمة المصرية تحية لثورتها قال فيها : « إن هذا الصوت يناجيكم

من وراء البحار ليهنئ الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها لا فرق فى ذلك بين أبنائها وبناتها مسلمين وأقباطاً . إنى أكتب هذه السطور اليوم وذكرى ١٤ سبتمبر تملأ فؤادى حزناً ولكنى أرى فجر الأمل يرسم على الأفق خطًّا من النور اللامع . نأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو» ومات فى سويسرا فى ١٩١٩/١١/١٥ أسكنه الله فسيح جناته ورحمه رحمة واسعة وجزاه عن الأمة خير الجزاء .

والذين كانوا يخشون فريد فى حياته خشوه فى مماته جسداً من عند أنفسهم ، فلم تفكر حكومة فى تكريمه بنقل جثمانه إلى وطنه وبقيت جثة الفدائى البطل بالخارج إلى أن تطوع مشكوراً الحاج خليل عفيفى من أعيان الشرقية ونقلها إلى مصر على حسابه الخاص .

وبمصر شيعت الجثمان الطاهر الآلاف من تلاميذه وأعضاء الحزب وعارفى فضله وجهاده إلى مقره الأخير بمقابر الإمام . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

لم ينجب المرحوم فريد بك سوى ابنه الأستاذ عبد الخالق . وكنا نرجو أن يكون خير خلف لخير سلف وأن نراه وقد ترسم خطى والده فى الجهاد وتحمل المشاق والتضحية والفداء ! ونقول ذاك الشبل من ذاك الأسد ، إلا أنه بعد أن تخرج فى الحقوق آثر أن يكون موظفاً فى الحكومة وتدرج فى وظائف النيابة والقضاء حتى وافاه الموت فى السبعينات رحمه الله رحمة واسعة .

ولعل أنصف المرحوم عبد الخالق بعض الشىء : أن أنا أرجعت عزوفه عن الاهتمام بالاشتغال بقضية بلاده إلى الظروف القاسية التى قضت بحرمانه من رعاية والده المباشرة عن كثب طول مدة غيابه فى الخارج فى خدمة مصر التى هام بحبها وإلى ما قاساه والده فى حياته من صنوف الاضطهاد والعنف ومحاربة المستعمر الغاشم وعملائه من أبناء الوطن وماجر عليه الجهد المضنى من مرض عضال وفقر مدقع حتى فقد صحته وثروته فى سبيل خدمة وطنه . ثم ما لمسه الابن من جحود السلطات المصرية وتنكرها لأبيه حتى فى أحلك أيام حياته وبعد وفاته وهو الوفى الأمين .

وخلف المرحوم فريد بك فى زعامة الحزب المحامى الكبير محمد حافظ رمضان باشا إذ انتخب رئيساً للحزب فى ١٩٢٣/٥/٨ وكان خطيباً مفوهاً حذا حذو مصطفى وفريد ، متمسكاً بمبدأ الجلاء الناجز والاستقلال التام لوادى النيل مصره وسودانه والملحقات ، وأخذ يلقى الخطب الوطنية الرائعة المدعمة بالحجج والبراهين فى مختلف المناسبات وفى المعارك الانتخابية التى خاضها بقوة وثبات وتحت قبه البرلمان الذى دخله ومعه من رجال الحزب عبد الرحمن الرافعى وعبد الحميد سعيد ومحمد محمود جلال ومصطفى الشوربجى وعبد العزيز الصوفانى وفكرى أباظة ومصطفى مرعى ونور الدين طراف ، وله مذكرات سياسية هامة من أهمها ماقدمها فى مجلس النواب سنة ١٩٣٢ عن مشروع جبل الأولياء

والمذكرة التى قدمها فى مؤتمر بروكسل يطلب فيها بإلحاح تقرير اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع ، ونجح أيما نجاح فى استجابة المؤتمر لطلبه المدعم بالبراهين القوية ، فقرر بالإجماع أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع ، وقام الرئيس فى ختام الجلسة بتهنئة حافظ باشا وشكره بحرارة على بحثه القيم . وفى أواخر أيامه وضع حافظ باشا كتابه «أبو الهول قال لى» .

ودخل حافظ باشا رمضان الوزارة أكثر من مرة :

فكان وزير دولة فى وزارة محمد محمود باشا فى ديسمبر ١٩٣٧ .

وتولى وزارة الشئون الاجتماعية فى وزارة حسن صبرى باشا فى يونية ١٩٤٠ .

وتولى وزارة العدل ثلاث مرات أولها فى وزارة ماهر باشا فى أكتوبر ١٩٤٤ .

ثم فى وزارة أحمد ماهر باشا الثانية فى يناير ١٩٤٥ .

ثم فى وزارة محمود فهمى النقراشى باشا فى فبراير ١٩٤٥ .

ورأى البعض أن فى دخول الحزب الوزارة تعاوناً مع الأحزاب التى تكالبت على المفاوضة واتخذتها سبيلاً لحل القضية المصرية ، وفيه أيضاً تناقض مع مبدأ الحزب – لا مفاوضة إلا بعد الجلاء – .

ورغم أن الحزب مدة رئاسته كان ضعيفاً مفككا فقد قاعدته الشعبية وأصبح مكسور الجناح تضافر على محاربته بضراوة المحتل وعملاؤه حتى بات خاوى الوفاض فلا وفرة من مال للصرف على بث الدعوة ولاكثرة فى رجال لتحمل أعبائها والتزامات الجهاد ولا ناد يجمع شمل الأعضاء والأنصار ولا صحيفة تنطق بلسان الحزب .

ورغم قلة عدد ممثليه فى البرلمان إلا أن حافظ باشا والقلة المؤمنة وقفوا فى ميدان الجهاد كالطود الشامخ لا تلين لهم قناة لهم وزن وأى وزن صامدين متمسكين بالحق يدعون له ويذودون عنه فى قوة حتى أظهره الله وصدق فيهم قول الله تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) .

ومما يجدر الإشارة إليه فترة المعاناة التى قاساها الحزب بافتقاده فى الثلاثينيات القاعدة الشعبية العريضة التى كان يتمتع بها فى السنوات الأولى من تأسيسه وأنتفاضة بعض شباب الحزب وفى طليعتهم الأستاذ فتحى رضوان المحامى للعمل على تجديد نشاط الحزب فى نطاق الإطار القديم فى الأربعينيات من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٩ بأصدار صحيفة اللواء الجديد (أسبوعية) لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ فتحى واستمرارها فى الصدور حتى توقفت عام ١٩٤٩ ، تنشر المقالات الملتهبة للأساتذة حافظ رمضان وعبد الرحمن الرافعى وأحمد توفيق وفكرى أباظة من الجيل القديم ، ويوسف حلمى ونور الدين طراف وسعد الدين كامل وأحمد شوقى بالإضافة إلى فتحى رضوان من الجيل الجديد . واستمرت حتى

نشرت فى مايو ١٩٤٩ بياناً بتوقيع « اللجنة العليا لشباب الحزب « الوطنى » تهاجم فيه قرار الحكومة من مد أجل الأحكام العرفية لسنة أخرى فكان ذلك الحادث بمثابة إعلان عن خروج جماعة شباب الحزب عن قيادته القديمة إلا أن نشاطها الثورى امتد حتى ١٩٥٢ سنة الثورة وسدت بذلك فراغاً كان ملحوظا .

مطبوعات الحزب الوطنى

١ – كتاب المسألة الشرقية لمصطفى كامل – سنة ١٨٩٨

١ – مكرر – الخطبة الجامعة للمرحوم الشاب مصطفى كامل بزيزينيا بالإسكندرية والتى أعلن فيها تكوين الحزب الوطنى ومبادئه

الثلاثاء ١٥ رمضان سنة ١٣٢٥

٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧

٢ – ترجمة رسائل مصرية فرنسية لعلى فهمى كامل ١٩٠٩

٣ – تقرير الحزب لمؤتمر فى جنيف ١٩١٢

٤ – تقرير الحزب لمؤتمر السلام فى لاهاى ١٩١٣

٥ – تقرير الحزب لمؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٤

٦ – تقرير الحزب لمؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ١٩١٦

٧ – تقرير الحزب للمؤتمر الدولى الاشتراكى فى برن ١٩١٧/٦/١٠

٨ – تقرير الحزب للمؤتمر الدولى الاشتراكى فى لوشيرون أغسطس ١٩١٩

٩ – خطاب مفتوح لأعضاء الوفد (لا حماية – لا تحالف – لا اتفاق)
لمصطفى الشوربجى عضو اللجنة الإدارية للحزب يناير ١٩٢٠

١٠ – تقرير الحزب فى قواعد الاتفاق ١٢ محرم سنة ١٣٣٩ – ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠

١١ – المسألة المصرية لأمين الرافعى ١٩٢١

١٢ – ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة ١٩٢١/٢/١١

١٣ – الحزب الوطنى – صفحة موجزة من تاريخه ١٩٢٤/١/٦

١٤ – الوطن فى خطر لمصطفى الشوربجى المحامى ٩ شوال ١٣٤٨ – ٩ مارس ١٩٣٠

١٥ – تقرير الحزب الوطنى فى مقترحات محمد محمود/ هندرسون

١٤ شوال سنة ١٣٤٨ – ١٥ مارس ١٩٣٠

١٦ – معاهدة أم حماية قاسية لعبد المقصود متولى عضو اللجنة الإدارية للحزب سنة ١٩٣٦

١٧ – قواعد المعاهدة استغلال أم حماية لعبد الرحمن الرافعى
سكرتير الحزب ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

١٨ – مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا – لعلى فهمى كامل

١٩ – خطاب حافظ رمضان بمجلس النواب عن مشروع جبل الأولياء ١٩٣٢/٤/١٠

٢٠ – خطاب حافظ رمضان وخطاب مصطفى الشوربجى فى مجلس النواب
عن مشروع المرسوم بإنشاء خزان جبل الأولياء مايو ١٩٣٢

٢١ – أبو الهول قال لى ، جزء أول لحافظ رمضان رئيس الحزب . . .

٢٢ – علم الدولة . للأستاذ أحمد وفيق المحامى

سلسلة كتب عبد الرحمن الرافعى :

١ – حقوق الشعب سنة ١٩١٢

٢ – نقابات التعاون الزراعية ١٩١٤

٣ – الجمعيات الوطنية ١٩٢٢

٤ – تاريخ الحركة القومية جزآن ١٩٢٩

٥ – تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على)

٦ – تاريخ الحركة القومية ثلاثة أجزاء (عصر إسماعيل ١٩٣٢)

٧ – الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى

٨ – مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٩٤٢

٩ – مصطفى كامل . . باعث النهضة الوطنية

١٠ – محمد فريد رمز التضحية والإخلاص

١١ – ثورة ١٩١٩ جزآن

١٢ – فى أعقاب الثورة المصرية ثلاثة أجزاء ١٩٥١

١٣ – خواطرى ومشاهداتى فى الحياة – طبع دار الهلال (١٨٨٩ – ١٩٥١)

١٤ – شعراء الوطنية فى مصر ١٩٥١

١٥ – أربعة عشر عاماً فى البرلمان (١٩٢٤ – ١٩٢٥) بمجلس النواب و(١٩٣١ – ١٩٥١) مجلس الشيوخ .

١٦ – تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة أكتوبر ١٩٢٣ (من فجر التاريخ إلى الفتح العربى)

١٧ – مقدمات ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ سنة ١٩٥٥

١٨ – ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ لسنة ١٩٥٧

١٩ – مصر فى العصور الوسطى (من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى)

وهو على فراش الموت وأتمه سعيد عبد الفتاح عاشور سنة ١٩٧٠

* * *